خواطر في الغفران

المتروبوليت سابا (اسبر)

(هذا المقال مستل من محاضرة للمطران كاليستوس وير.)

"وعبر الأبديّة كلّها، أنا أغفر لك، وأنت تغفر لي. كما قال فادينا العزيز: "هذه هي الخمرة، وهذا هو الخبز." — Willam Blake

"الغبيّ لا يغفر ولا ينسى، الساذج يغفر وينسى، أمّا الحكيم فيغفر ولا ينسى." — Thomas Szasz

"إنّه يغفر لأنه حرّ." في كتاب كيفن أندرو "رحلة إلى أكاروس" ثمّة قصّة يجمل فيها الكاتب جوهر الغفران. كان أندرو يدرس حصون القرون الوسطى في اليونان. وفي العام ١٩٤٩، تنقّل في منطقة دمّرها الاحتلال الألمانيّ في الحرب العالميّة الثانية، وقسمها بوحشيّة الصراع اليونانيّ الذي تلا هذه الحرب، بين الشيوعيّين والمضادّين لهم؛ وكان هذا الصراع في نهاياته.

وصل أندرو ذات مساء إلى قرية استضافه فيها كاهن الرعيّة باباستافروس. كان بيت الكاهن قد احترق في أثناء الحرب الأهليّة، فاستقبل ضيفه في زريبة البيت حيث يقيم هو.

علم أندرو بقصّة الكاهن تدريجيّاً. لقد التحق ابناه الكبيران بالمقاومة ضدّ الاحتلال الألمانيّ، لكن بعضاً من أبناء القرية الخائنين وشوا بمكان اختبائهما، فألقى الألمان القبض عليهما، ولم يشاهدهما أحد بعد ذلك. في ذلك الوقت ماتت زوجة الكاهن بسبب المجاعة. بعدما رحل الألمان عاش باباستافروس وحيداً مع إحدى بناته المتزوجات وطفلها، وكانت تنتظر طفلها الثاني خلال أسابيع. في أحد الأيّام، وفيما هو عائد إلى بيته وجد الشيوعيّين وقد أشعلوا النيران فيه، وروى لأندرو: "شاهدتهم يجرّون ابنتي خارجاً ويقتلونها؛ لقد أفرغوا كلّ رصاصاتهم في بطنها. ثم قتلوا الصبيّ الصغير أمامي."

لم يكن من قاموا بهذه الأفعال الفظيعة غرباء آتين من مكان بعيد، بل أناس محلّيون، يعرفهم باباستافروس ويلتقي بهم يوميّاً. قالت إحدى نساء القرية لأندرو: "أتعجّب

كيف أنّه لم يفقد عقله بعد!". لكن الكاهن، في الواقع، لم يجنّ، بل تكلّم مع القرويّين عن الحاجة إلى الغفران. قال لأندرو: "طلبت منهم أن يغفروا، وقلت لهم إنّه ما من طريق آخر". وأضاف قائلاً إنّهم ضحكوا عليه في وجهه. وعندما تكلّم أندرو مع ابن الكاهن الذي بقي حيّاً، لم يضحك ذاك على أبيه، بل قال عنه: "إنّه يغفر لأنّه حرّ ."

ثمّة جملتان تنيران هذه القصّة: "ما من طريق آخر" و "إنّه يغفر لأنه حرّ."

"ما من طريق آخر." في حالات معيّنة، معقّدة جدّاً وعسيرة، مسكونة بالعذاب الكبير، لا يوجد سوى طريق واحد للخروج منها: إنّه الغفران. الثأر، في الحقيقة، يزيد المشكلة سوءاً؛ كما يقول المهاتما غاندي: "مبدأ العين بالعين يترك العالم برمّته أعمى". بالغفران فقط يمكننا كسر سلسلة الأخذ بالثأر المتبادل ومرارة تدمير الذات. ما من أمل ببداية منعشة من دون الغفران. لقد وجده باباستافروس، الذي واجه، وجهاً لوجه، مآسي احتلال العدوّ والحرب الأهليّة. تنطبق كلماته بكلّ تأكيد أيضاً على حالات صراع أخرى كثيرة في هذا العالم.

"إنّه يغفر لأنه حرّ." إنّها كلمات القدّيس الستارتس سلوان الآثوسيّ (١٨٦٦-١٩٣٨): "حيث يوجد الغفران ... توجد الحرّيّة". لو حملنا أنفسنا على الغفران – لو أردنا أقلّه أن نغفر، سنجد أنفسنا في "مكان التسبيح" أو "مكان الحرّيّة،" حسبما جاء في المزامير: "جزنا في النار والماء لكنّك أخرجتنا إلى منتجع راحة" (مز٦٥/١٢). الغفران فقط يمكّننا من الدخول في ما اصطلح بولس الرسول على تسميته: "حرّيّة مجد أبناء الله" (رو٨/٢١).

لكن ما أقسى أن تغفر وأن يُغفر لك، وما أشدّه من وجع! لنقتبس من شاهد أرثوذكسيّ روسيّ آخر، الميتروبوليت أنطوني (بلوم) سوروج (١٩١٤-٢٠٠٣): "ليس الغفران جدولاً صغيراً على الحدود ما بين العبوديّة والحرّيّة، بل له عرض وعمق؛ بمثابة البحر الأحمر." يقول أب البرّيّة إفاغريوس البنطي (٣٤٦-٣٩٩): "لا تظنّ أنّك امتلكت الفضيلة ما لم تكن قد جاهدت لأجلها حتّى سفك الدم". يُقال الأمر ذاته عن الغفران. نختبر أحياناً أنّ صراعنا من أجل أن نغفر، ليس أقلّ من استشهاد داخليّ، من إهراق دمنا.

***

بعد أن ينحني المؤمنون في صلاة الغفران أمام بعضهم بعضاً، مستغفرين وغافرين، ماذا يفعلون في اليوم التالي، الأوّل من الصوم، المعروف بـ"الاثنين الطاهر"؟ في أماكن كثيرة لا يزال تقليد الخروج إلى التلال في نزهة مستمراً؛ في هذا الاحتفال السنويّ المفتوح في الهواء الطلق، يطيّر الأولاد والبالغون طائرات ورقيّة. ثمّة خبرة داخليّة نتذوّقها عندما نبدأ بالاستغفار والغفران؛ خبرة دخولنا في زمن الربيع. أن نخرج من الكآبة إلى نور الشمس، من السجن الذاتي إلى حرّية الهواء المفتوح. أن نصعد إلى التلال، أن ندع الريح تنفخ في وجوهنا، ونطيّر طائرات ذهننا، طائرات التخيّل والأمل والفرح.

وكما قال ابن الكاهن بابا ستافروس: **"إنّه يغفر لأنّه حرّ."**

صوم مبارك للجميع!